

مرحلتان في تاريخ مصر العام

لمصر تاريخ طويل يختلف المؤرخون في تحديد بدايته ، فيجعلها بعضهم في الألف الخامسة قبل الميلاد ويجعلها بعضهم الآخر في الألف الرابعة وفي القرن الثالث والثلاثين بالذات ؛ وتميل أكثرهم الآن إلى أن تعتمد التاريخ الأخير . ومع ذلك فمن المسلم به من الجميع أن قيام الأسرة الأولى وظهور الكتابة وبداية التاريخ المكتوب لا تمثل أول التاريخ في مصر ، وإنما هي نهاية لعهد طويل من التطور أرسيت خلاله أسس الحياة المادية والاجتماعية في مصر ، واتخذت تلك الحياة مقوماتها ومظاهرها التي حفظت عليها طابعها المصري خلال الأعصر اللاحقة . وقد يكون من الحق علينا الآن أن نتحدث عن فجر المدنية المستقرة في مصر بدلا من أن نتحدث عن أول التاريخ المكتوب . فالكتابة التي يصطلح الناس على أن يبدأ التاريخ بظهورها لم تكن إلا عرضاً أضاف إلى الحياة ولكنه لم يغير من أسسها ولم يحوّر من مقوماتها . بل إن الحياة المادية في العهد الفرعوني الذي عرف المصريون فيه كيف يسجلون تاريخهم لم تكن في أصولها وأسبابها وطرائقها وغاياتها إلا استمراراً لحياة شعب مصر الذي استقر في الوادي منذ عرف الناس الزراعة وفلاحة الأرض واستئناس الحيوان ورعيه ، أي منذ العصر الحجري الحديث . كذلك لم تكن حياة المصريين العقلية والروحية ونزعاتهم في الذوق والتفكير إلا استمراراً وتجديداً لما كان من حياة أسلافهم في عهد ما قبل الأسرات . بل إن اتصالات المصريين بالخارج وتبادلهم ألوان الثقافة والفكر مع غيرهم في الشرق والغرب والجنوب والشمال قد بدأت كلها في أدوار مختلفة قبل أن يبدأ التاريخ المكتوب . وإذا نحن نظرنا إلى مصر عند قيام الأسرة الأولى فاننا نجد أن المجتمع فيها كان مكتمل الحياة والتطور في كثير من الوجوه . فالأسس الاقتصادية والمادية قد بلغت حدًا كبيراً من الاستقرار والتعقيد ؛ وحياة الناس ومصالحهم

قد ترابطت وتشابكت ، فجمعت بين تخصص الحرف وتكاملها . والنظام الاجتماعي قد تطور فشمّل طبقات السكان ، كما اتسع حتى شمل الوطن كله ؛ فهو قد بلغ غايته ، أو كاد يبلغها ، في العمق والاتساع . والحياة الاجتماعية والدينية للمصريين كانت قد تجاوزت حد الحس والمحسوسات إلى عالم المعنى والمعنويات وما يتصل بها من ثقافة الروح والوجدان . وكذلك الحياة الفنية والثقافية العامة لأبناء وادي النيل الأدنى قد بلغت غاية رفيعة مكنت للفن وثقافة الذوق والنفس من أن تكون جميعاً في خدمة الروح والدين . بل كذلك الحياة الادارية والسياسية للمصريين قد بلغت حداً استطاع به الفرد أن يلائم بين العصبية الاقليمية وروح الوحدة القومية ، وذلك منتهى ما ترمى إليه الحياة في أمة من الأمم . والمصريون جميعاً قد صار لهم طابع عام مميز ، جعلهم يحسون كيانهم الخاص الذي يفرق بينهم وبين غيرهم من شعوب الشرق القديم . لذلك كله كان من الحق علينا ألا نقف عند ما اصطلاح المؤرخون على أن يسموه أول التاريخ المكتوب ؛ بل نرجع للوراء حتى نجز الحياة المستقرة المتحضرة في مصر ، أي إلى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وإذا نحن فعلنا ذلك فاننا نجد أن تاريخ شعب مصر يمتد إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

وهذا التاريخ الطويل يمكن أن نقسمه إلى مرحلتين كبيرتين . ونحن إذ فعلنا ذلك نتجاوز عن كثير من التفاصيل التاريخية التي يعنى بها المؤرخون أشد العناية أحياناً ، ولكنها مع ذلك قد تطفئ على المعالم الكبرى فلا تسمح لغير المؤرخ أن يخرج بصورة واضحة من الاتجاهات الكبرى في تاريخ مصر . ومع ذلك فنحن سنعالج الموضوع من وجهة نظر ما نسميه بالجغرافيا التاريخية ؛ وهي تلك التي تدرس الصلة المتطورة بين الشعب والبيئة التي يعيش فيها ، والعلاقة الدائمة بين الحوادث التاريخية الجارية والظروف الطبيعية التي تساعد على تكيف تلك الحوادث .

والناظر إلى تاريخ مصر العام يجد أن شعب مصر قد تأثر في حياته وتاريخه بعوامل كثيرة : أولها ظروف البيئة المحلية ، ومنها النيل والترية والمناخ وموارد الطبيعة في أشكالها وصورها المتعددة . ولولا هذه البيئة الغنية السخية ، والتي يتجدد غناها وتتعدد مظاهرها سخاؤها في كل عام ، ما استطاع

مجتمع مصر أن يحفظ على نفسه حياته المزدهرة خلال أعصر التاريخ الطويل . بل إن البيئة المصرية بصفاتها التي يدرسها الجغرافيون إنما هي إلى حد كبير ، سر ما امتازت به حضارة مصر من القدم والازدهار .

وعامل جغرافي آخر هو موقع مصر بالنسبة للبلدان المجاورة في الشرق القريب وشرق البحر المتوسط وفي شمال إفريقيا وشرقها . وقد بدأت اتصالات مصر بتلك البلدان جميعاً منذ أقدم العصور ؛ بل منذ بداية عهد المعدن على وجه التحديد . فكانت مصر على اتصال بالشرق والغرب والجنوب والشمال . وقد أخذت عن تلك الأقطار جميعاً كما أعطتها من عناصر المدنية ومعالم الثقافة . ومع ذلك فقد امتازت صلات مصر بالعالم المجاور بأنها لم تكن صلات طغيان ، لا من جانب مصر ولا من جانب ذلك العالم المجاور . والدليل على ذلك أن مصر حين توسعت كان توسعها قائماً على أساس الاحتكاك وتبادل المنفعة ؛ فلم تحاول مصر أن تفرض نظم حياتها ولا حتى معالم دينها وثقافتها الدينية أو اللغوية على غيرها من البلدان ؛ وإن كانت أثرت فيها كلها وتأثرت بها . وكذلك الحال فيما أصاب مصر من الغزوات التي أنتت من بعض هذه البلاد المجاورة ؛ فإن تلك الغزوات لم تقطع على أرض النيل سبيل الحياة ، ولم تطمس معالم المدنية في مصر بالذات ، بل لم تغير اتجاه التاريخ العام فيها تغييراً يمس أسس الحياة ومقوماتها الأولية ، كما حدث في بعض البلدان الأخرى ذات المدنية العريقة ، والتي جاءتها غزوات من الخارج في بعض العهود فدكت معالم تاريخها دكا ، كما حدث في بلد كالعراق القديم ، بل كما حدث في حالة بعض الامبراطوريات القديمة ومنها إمبراطورية روما على سبيل المثال . وغاية ما حدث في حالة مصر أن الغزوات القديمة والحديثة التي أنتت من البلدان المجاورة لها مباشرة ، كشمال بلاد العرب أو جزر اليونان أو شواطئ ليبيا ، قد أضافت عناصر جديدة إلى الحياة المصرية ، والحياة الثقافية بنوع خاص ؛ وكانت هذه الاضافة مما نوع الحياة في مصر وزاد في ألوانها زيادة جدت تاريخ الحضارة والثقافة في مصر من جهة ، وجعلت من أرض مصر موطن حضارة وإتماء لبعض الألوان الأجنبية من الثقافة ، كالفكر الأغرقي والفكر العربي الاسلامي ، من جهة أخرى .

ثم عامل جغرافي ثالث أثر في حياة مصر وتاريخها العام ، هو موقع مصر

بالنسبة للعالم كله ، عند ملتقى قارات ثلاث هي آسيا وإفريقية وأوروبا ، وعند مفرق بحرين قديمين هما البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد بمياهه إلى البحار الباردة في الشمال ، والبحر الأحمر الذي يمتد حتى يتصل بالبحار الدفيئة ومناطقها في الجنوب . وهذا الموقع الجغرافي كانت له قيمته الكبرى ؛ لأنه جعل من مصر قلب العالم القديم ، وجعلها في طريق الاتصال بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . ومع ذلك فان قيمة هذا العامل الجغرافي الحاسم في تاريخ مصر لم تبدأ إلا بعد أن اتصلت أجزاء العالم بعضها بعض ، وبعد أن عرف الشرق الغرب ، وعرف الشمال الجنوب . والشئ الذي لا يخلو من دلالة أن هذا التعارف الواسع المدى لم يحدث في صورة مباشرة إلا في عهد الاسكندر الأكبر الذي كانت حروبه ومخاطراته نقطة تحول خطير في تاريخ العالم القديم . بل ربما كانت تلك الحروب أخطر ما حدث في حياة الانسانية القديمة ، من حيث إنه عاصرها وترتب عليها احتكاك الغرب بقلب الشرق احتكاكاً عسكرياً مباشراً ؛ أصاب الغربيين والشرقيين عموماً بصدمة عنيفة مباشرة ، هزت مشاعر الناس جميعاً في ذلك العهد ، وتوكت أثرها الدائم والعميق في قصص الغرب والشرق على السواء ثم ترتب على ذلك التعارف الذي أطمع الغرب في الشرق حيناً ، وأطمع الشرق في الغرب حيناً آخر ؛ والذي أقل ما يقال فيه إنه جرى بالصلوات والأسباب ، ومهد السبيل إلى أن تتصل التجارة والمواصلات البرية والبحرية المباشرة بين مناطق العالم المختلفة ، مما ترتب عليه آخر الأمر أن برزت قيمة موقع مصر كحلقة اتصال بين الشرق والغرب .

قد لا تغالى كثيراً إذا قلنا إن حروب الاسكندر وما تلاها من احتكاك وتعارف واتصال بين جهات العالم ، بل ما تلاها وترتب عليها من إبراز قيمة موقع مصر الجغرافي ، كانت السبب الأساسي والمباشر فيما نلاحظ من اختلاف واضح بين مرحلتين كبيرتين من مراحل تاريخ مصر العام ؛ هما العهد الفرعوني وما سبقه من تطور طويل يمتد إلى العصر الحجري الحديث ، ثم العهد اللاحق لغزوات الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، والذي يمتد خلال تاريخنا الاغريقي الروماني والعربي الاسلامي ، بل يمتد إلى وقتنا الحاضر . ففي المرحلة الأولى كانت مصر سيده تاريخها ؛ لم تتأثر في حياتها إلا بالعوامل

الجغرافية المحلية وظروف البيئة التي تجدد الحياة والتاريخ ، وإلا بظروف موقعها الجغرافي من حيث اتصالها بالعالم المجاور لها مباشرة ؛ فتطغى عليه وتغزوه في بعض الأحيان كما حدث في عهود توسع الامبراطورية المصرية الحديثة إلى بلاد الشام ؛ أو يطغى عليها ويغزوها أحياناً ، ويقطع حياتها السياسية القومية خلال فترة قد تقصر أو تطول . أما في المرحلة الثانية ، أى بعد عهد الاسكندر الأكبر ، فقد تغيرت الحال ، وبرز إلى الوجود ذلك العامل الجغرافي الثالث . وهو موقع مصر في طريق المواصلات العالمية . وهذا العامل الثالث أدخل في حساب التاريخ المصرى قوة العالم كله ، وربط تاريخ مصر وحياتها بظهور فكرة « العالمية » ، وبالقوى المختلفة التي تسعى إلى السيطرة على اتصالات الشرق والغرب ، والتي قد يكون مصدر بعضها قريباً من مصر كما حدث أيام الامبراطورية الرومانية وإمبراطورية العرب ؛ وقد يكون بعضها بعيداً عن مصر كما حدث أيام الحملة الفرنسية وأيام الامبراطورية البريطانية وفي هذا العهد الذى نعيش فيه أو الذى نحاول جاهدين أن نتخلص من أعقابه .

لم يكن ذلك الاختلاف الظاهر الكبير بين هاتين المرحلتين الكبيرتين من تاريخ مصر العام نتيجة مصادفة أو محض اتفاق . بل إنه لم يكن مترتباً على ضعف في الحياة المصرية أو انحلال في تكوين شعب مصر ، كما كان يقال إلى عهد قريب . فأرض مصر هي هي الآن كما كانت أيام قدماء المصريين ، وخصبها في العهد الرومانى أو العربى أو في العهد الحديث لا يقل كثيراً عن خصبها أيام قدماء المصريين . بل نستطيع أن نقول إن استغلال الأرض في مصر في بعض الأعصر اللاحقة بل في العصر الحديث الذى أدخل فيه الرى الدائم والمحصولات الحديثة إنما هو في الحقيقة أعلى مرتبة من استغلال تربة مصر ومواردها الزراعية المحلية أيام قدماء المصريين ؛ سواء أكان ذلك من ناحية غلة الأرض أم من ناحية تنوع المحاصيل . كذلك الحال في شعب مصر ، فقد أضيفت إليه في العهود الاغريقية والعربية والحديثة عناصر جديدة من الخارج ، جددت دماؤه وأضافت إلى تنوع المواهب والملكات فيه ؛ فهى لم تضعفه ولم تنته إلى شئ من الانحلال الذى قد يتحدث عنه بعض الكاتبين . فشعب مصر في تكوينه الحالى لا يقل قدرة ولا استعداداً عن شعبها أيام الفراعنة ، بل إنه قد يكون أقوى في تكوينه الحديث من بعض الوجوه .

ولكن الذي حدث في بعض العهود الحديثة هو أن القوى العالمية أصبحت من الضخامة وشدة البأس بحيث لا تستطيع مصر أن تناظرها بقوتها المحلية . ولذلك فإن عامل الموقع الجغرافي العالمي أصبح أبعد تأثيراً في توجيه تاريخنا العام من عامل القوة المحلية المصرية . وبذلك أفلت زمام التاريخ من مصر ، ووقع في يد أجنبية تسعى إليها وتستغل موقعها وتوجهها فيما ييسر اتصال العالم عن طريق ذلك الموقع ، دون أن تفيد مصر من ذلك الاتصال غير بعض الفائدة العارضة .

ولكننا نخطئ إذ نتصور أن هذا العامل المتصل بموقع مصر الجغرافي كان العامل الوحيد أو الغالب على الدوام في تاريخ مصر منذ عهد الأسكندر . إذ الواقع أن حياة مصر وتاريخها في هذه المرحلة كانا متأثرين بالعوامل الثلاثة التي أشرنا إليها : موارد البيئة المحلية ، والموقع الجغرافي المحلي ، والموقع الجغرافي العام . وفي كثير من الأحيان كانت تلك العوامل متداخلة ومتشابكة الأثر . ففي بعض العهود التي عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية وتوجهها وجهة النفع والخير ، ازدهرت فيها الحياة وزادت قوتها المحلية ، فأصبحت من القوة بحيث تسيطر على العالم المجاور أول الأمر ، ثم تتحكم في المواصلات العالمية وتفيد من موقعها الجغرافي العام تبعاً لذلك . ومثل هذا حدث أيام البطالمة ؛ وهم قد توسعوا في استصلاح الأرض وزراعتها وتنوع محصولاتها وغلاتها ، كما توسعوا في تجارة مصر الخارجية وسيطروا على طرق البحرين الأبيض والأحمر ؛ وعرفت مصر إذ ذاك وبعد ذلك كيف تفيد من موقعها الجغرافي في التجارة العالمية ، حتى أصبحت مركز الاتصال بين الشرق والغرب ، لا في التجارة وحدها ، بل كذلك في الفكر والثقافة ؛ فورثت مجد الاغريق وثقافتهم ، وصارت الاسكندرية بحق منار العلم والمعرفة في العالم القديم . كذلك حدث مثل هذا في بعض الأعهد العربية ؛ فاستغل صلاح الدين مثلاً موارد مصر وموقعها الجغرافي ، فتوسع في الأقطار المجاورة من قاعدته الغنية القوية . كما استطاعت مصر أيام المماليك أن تستغل موقعها الجغرافي وأن تفيد منه بحيث أصبحت سيده التجارة بين الشرق والغرب . وتجددت مثل هذه الحال أو كادت تتجدد في عهد محمد علي ؛ فهو قد بدأ باستغلال موارد البيئة المحلية وتجديد ثروة مصر في الزراعة والصناعة والتجارة ، وحاولت

مصر في وقت من الأوقات أن تسيطر على طريق الشرق والغرب ؛ ولكنها — مع الأسف — فقدت بالتدريج قوتها المحلية ، بعد أن تألب عليها العالم الخارجي وقص أجنحتها ، واضطرها إلى أن تنطوى على نفسها ، بعد أن كان مجد على قد اتخذ منها قاعدة سعى منها إلى الأقطار المجاورة . وهكذا انتهى العهد الحديث إلى أن ضعفت مصر بالنسبة للقوى العالمية الخارجية ؛ فطغى العامل الثالث على أثر العاملين الأولين .

بل هكذا نستطيع أن نستخلص أن تاريخ مصر إذا نظر إليه في مجلته ، فإنا نجد أن المرحلة الفرعونية امتازت بأن تاريخ مصر وازدهارها وقوتها كانت متوقفة إلى حد كبير على حسن استغلال المصريين لظروف بيئتهم المحلية ، كما كانت متوقفة على مبلغ توفيقهم في الاستجابة لظروف تلك البيئة ودوافعها الظاهرة والخفية ؛ وهي بيئة تستلزم ، كما رأينا في كثير من أحاديثنا السابقة ، تماسك المجتمع ووحدته في دفع خطر الفيضان المشترك واستدراار منفعة الري المشترك أيضاً ؛ بل هي بيئة تستدعى العمل الدائب المنظم والتضافر والتكافل بين فئات المجتمع . ولذلك فإنه حتى في العهد الفرعوني كان معيار تقدم المجتمع وازدهار الحياة والمدنية مرتبطاً بمبلغ استمساك المصريين بما تقتضيه بيئتهم من الوحدة والنظام والعمل الدائب . ففي الأدوار التي استمسك المصريون فيها بوحدهم واستغلال موارد بيئتهم في داخل أرض الوادي وفي الصحارى المجاورة ؛ وكذلك في الأدوار التي عرف المصريون كيف يفيدون من موقعهم الجغرافي المحلي ، وكيف يوجهون صلاتهم بالعالم الخارجي وجهة الخير والمنفعة ... في مثل هذه الأدوار ازدهرت حياة مصر واشتد بأسها وامتد سلطانها ونفوذها ؛ كما حدث في بعض أطوار التاريخ الفرعوني المعروف . وفي الفترات التي ضعف فيها المجتمع وأهمل فلاحه الأرض ، وأعرض عن الاستمساك بالوحدة الطبيعية الشاملة التي تقتضها ظروف البيئة ، اضمحلت الحضارة والمجتمع وساد الاقطاع وتنابدت الأقاليم ، فضعفت مصر ، وأطمع ذلك فيها الغزاة القرييين ، فطغوا عليها ، كما حدث في الفترة بين الدولة القديمة والوسطى أو في فترة غزوة الهكسوس .

فإنما بعد عهد الاسكندر وإلى عهدنا الحديث فقد تعقد تاريخ مصر ، وظهر فيه العامل الثالث ؛ وهو عامل قد لا تكون لمصر فيه يد ، ولكنه

زاد في التزاماتها نحو نفسها من جهة ، ونحو العالم من جهة أخرى . وقد حاولت مصر في كثير من عهودها أن تلائم بين ما تقتضيه مصلحتها الخاصة وبين ما يفرضه عليها موقعها الجغرافي في وسط العالم . ولكنها لم تكن في كل أدوارها من القوة بحيث تستطيع أن تحقق تلك الملاءمة على وجهها النافع السليم . ولذلك فهي قد تعثرت في تاريخها أثناء هذه المرحلة اللاحقة ، ولم توفق إلا في فترات قليلة منها . بل إن كبواتها في بعض العهود اللاحقة ، كانت أبلغ أثراً مما حدث أثناء كبواتها في العهد الفرعوني . فقديماً كانت مصر تضعف ؛ ولكن مفتاح النهضة كان بيدها هي دون غيرها . أما في المرحلة اللاحقة لفتوح الإسكندر فان مصر لم تكن على الدوام سيدها نفسها ؛ حتى في بعض الحالات التي حاولت فيها أن تخرج بنفسها من الظلمة إلى النور ومن الضعف إلى القوة ، لم يطاوعها العالم الخارجي إلى ذلك ، ولم تملك هي أن تتخذ لنفسها طريق النهضة ؛ لأن قوى أخرى أعظم منها أوصدت أمامها ذلك الطريق .

وعلى ذلك فقد ينبغي فيما نحن بسبيله الآن من نهضة نحاول أن نخرج بها مما أصابنا به موقعنا الجغرافي من بلاء في عهدنا الحديث أن نستعرض الحالة على وجهها الصحيح ، وأن نبصر أنفسنا بما قد يكون فينا من عيوب ، وبما قد يقوم من حولنا من قوى عالمية جبارة لا نناظرها ولا نملك دائماً أن نوجهها وجهة الخير . فذلك كله أساسى إن نحن أردنا أن نعرف قدرنا كما هو في عالمنا الحديث .

نحن أمة غنية الموارد سخية البيئه . قد حاولنا خلال هذه الأجيال الثلاثة أو الأربعة المنقضية ، أى منذ عهد محمد على ، أن نجدد مواردنا وطرائق استغلالها ؛ فأدخلنا الري الدائم ، ونوعنا محاصيل الأرض وغلاتها ؛ وبذلك تضاعفت ثروتنا الزراعية . ومع ذلك فقد تضاعف عدد سكاننا بما يفوق تضاعف الموارد . ولذلك فان غنانا في الوقت الحاضر ظاهرياً أكثر منه فعلياً . بل نحن قد نكون في فقر نسبي إذا قارنا حالنا الآن بما كانت عليه أيام قديماً المصريين ؛ خصوصاً إذا راعينا أن اتجاه اقتصادنا القوي في العهد الحديث قد سار نحو التوسع الزراعى ولم يلتفت القائمون بأمره نحو استغلال الثروة المعدنية والصناعية التفاتاً جدياً ، إلا في الحيل الأخير . فضلاً عن أننا لم نفرّد بهذه

الناحية الأخيرة ، وإنما شاركتنا فيها عناصر ورءوس أسواق أجنبية ؛ وذلك كله لم يكن له وجود أيام قدماء المصريين . كذلك نحن شعب قد تكاثرت فيه الدماء وتنوعت بين أفرادها الصفات والملكات ؛ فنحن من حيث الاستعداد قد لا تقل عن غيرنا . ومع ذلك فنحن شعب قد تكاثرت عليه المشكلات الاجتماعية والتعليمية والصحية ، وهي مشكلات أتت بها العهد الحديث ، ولم يكن لبعضها وجود في بعض أعصرنا الخالية ؛ وهي إلى ذلك تضيف حملاً ثقيلاً ينوء به الشعب وينفق في سبيل معالجته جهداً قد كان يمكن أن ينفق في نحو آخر يرتفع بالحياة فوق مستواها الحالي . كذلك لمصر في الوقت الحاضر موقع جغرافي وارتباطات قوية بالبلدان المجاورة ؛ ولكنها مع ذلك لا تستطيع — أو هي لم تكن لتستطيع حتى هذه السنوات الأخيرة — أن توطد صلاتها بهذا العالم المجاور إلى الحد الذي تفيده منه وتستفيد ، وتنتفع وتتنفع . وهي حتى في جنوب الوادي لا تملك أن تسائر طبيعة الأشياء فتم وحدتها وتستكمل كيانها في الحدود التي رسمتها الطبيعة لوادي النيل . ثم إن لمصر موقعاً جغرافياً عالمياً فريداً ، ولكنها من الضعف والارتباك السياسي بحيث لا تستطيع أن تتحكم في موقعها بنفسها ، ولا أن تكون سيدة الاتصال بين الشرق والغرب كما كانت في بعض أعصرها الماضية . وإنما هناك قوى عالمية جبارة لا تملك مصر إلا أن تعترف بوجودها ، وإلا أن تحاول أن تتخلص من ظلها الثقيل بقدر الامكان .

حالتنا وحال العالم اليوم إذن غير حالنا وحال العالم في بعض أعصر تاريخنا القديم . وخير لنا إن نحن أردنا أن نستبين الطريق لهذه الأمة الناهضة فيما هي مقبلة عليه من أيام ... خير لنا أن ننظر إلى الماضي نظرة تجاوز المظاهر والسطحيات إلى الأسس والقومات في حياة هذا الشعب وتاريخه الحافل الطويل . ونحن إن فعلنا ذلك فسنرى أن ظروف البيئته والموقع الجغرافي ، وكذلك جهاد هذا الشعب في استغلال تلك الظروف ، قد كان لها جميعاً أثرها الكبير في تحديد الاتجاهات الكبرى في تاريخنا العام . وسنرى بصفة خاصة أن عاملاً خطيراً ، هو موقعنا الجغرافي العالمي ، لم تكن قيمته قد تجلت بعد في أيام أجدادنا الفراعنة الأمجاد ؛ وأن هذا العامل إنما ظهرت آثاره كاملة في المرحلة اللاحقة لفتوح الاسكندر ، عندما غدا ذلك الموقع سلاحاً ذا حدين . ففي الأدوار التي عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية في البيئة النيلية

والصحراوية ، وكيف توجه مصادر القوة في تكويننا الشعبي المنوع السلالة
والمواهب والملكات ، وكيف تفيد من موقعها الجغرافي المحلي أو الاقليمي في
توطيد صلاتها ببحيرانها في الشرق القريب وتوجيه تلك الصلات وجهة الخير
والفائدة التي تعم الجميع . . . في مثل هذه الأدوار استمسكت مصر بأسباب
وحدتها وقوتها ، فتزعمت الشرق القريب في التجارة والثقافة ، وصارت بحق
سيدة تاريخها والمشرفة على مواصلات العالم . وفي الأدوار التي أهملت فيها
مصر مواردها المحلية في البيئة الطبيعية وسكان القوة في تكوينها الشعبي ،
ولم تعرف كيف تفيد من موقعها الذي يربط بينها وبين أمم الشرق القريب بأوثق
الأسباب . . . في هذه الأدوار جاء العامل الجغرافي الثالث ، وهو موقعها
العالمي ، وبالأعلى عليها ، فلم تعرف كيف تفيد منه ، بل طغى عليها العالم
الخارجي ، وضاعت مكانتها في العالم ، وغدت طريقاً وممرًا لقوى عالمية جبارة
ليس لمصر الضعيفة إلى مناظرتها أو إلى قهرها من سبيل .

أ يكون لنا في مستقبلنا من القوة ما يفتح أمامنا السبيل إلى أن نوجه
موقعنا الجغرافي في وسط العالم وجهة الخير ، فنستعيد بعض ما كان لنا من
ماض في بعض أدوار التاريخ ؟ لعلى الشرط الأول لذلك كله أن نعرف
قدر بلادنا وقدر أنفسنا ، بل قدر هذا الموقع الفريد الذي سبقنا إلى إدراك
قيمتها الخطيرة غيرنا من الناس !

سليمانه مزبور